الرصافي: بين تاريخ الأدب وتاريخ السياسة

بقلم: ابراهيم الوائلي

لقد أخذ الرصافي مكانتـــه التي يستحقها في تأريخ الأدب الحديث واصبح موضوع كثير من الدراسات الأدبية في العراق وغيره، ومن حقه ان يأخذ مكانته ايضاً في تأريخ السياســة الحديثة بوصفه أحد كبار العاملين في حقلها والموجهين اليهـا. أجل لقد أخذ الرصافي مكانته في تأريخ الأدب الحديث لأنـه وجد من يستطيع ان يسجل مظاهر الأدب تسجيلاً لا مواربة فيه ولا التواء ولأن الأدب لا يستطيع ان يغفل من تأريخـه عنصراً هاماً كان له الأثر الكبير في تكوين المدرسـة الشعرية المعاصرة وفي كشف الطريق التي سلكها الشعراء المعاصرون. ولكن تأريخ السياسة لم يستطع ان يجرب قلمه في الحديث عن الرصافي الذي كان داعياً وموجهاً ونائباً وصحافياً وقف جهاده وقلمه وتفكيره لخدمة امته ووطنه. ذلك لأن قلم هذا التأريخ لا يزال مهزوزاً مضطرباً يحتاج إلى قوة في العصب والدم ونضج في فهم الحقائق وتدوينها، شأنه في اكثر ادواره وعصوره، ومن ثم حذف اسم الرصافي من التأريخ المجرد، ومن الخير له ان يحذف من تأريخ قاتم الصور والألوان ليبقى ذخيرة يرجع اليها مؤرخو الأدب الحديث كلما أرادوا الكتابة والبحث في موضوع الشعر. ولكن هـــل يستطيع مؤرخ الادب ان يستغني عن دراسة التأريخ العام، وهل يسلم نهج البحث في دراسة الشعر – والشعر السياسي منه – إذا لم يمزج بينه وبين دراسة المجتمع والحوادث التأريخية؟ إذا جاز لمؤرخ الأدب ان يسلك هذا الطريق الملتوي جاز له ان يغفل دراسة التأريخ الحديث حين يريد البحث في شعر الرصافي، وهذا عسر ما بعده عسر ومشقة ما فوقها مشقة، ذلك لأن شعر الرصافي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحوادث تاريخية كبرى وبمجتمع واسع الآفاق.

ومن ثم نستطيع القول بان الذي يتصدى لدراسة الرصافي من الوجهة السياسية على الأقل سيجد في طريقـــه كثيراً من العقبات اهمها هذا التأريخ السياسي المضطرب المشوه الذي لا يتفق اكثر ما فيه مع تجارب الرصـافي وافكاره، بل لا يتفق مع الواقع لو جرّد من الاغلاط والعواطف المهزوزة، فهو إذاً – واعني دارس الرصافي – امـا ان يطرح كثيراً من فصول هذا التأريخ ويستخلص تأريخاً سياسياً من شعره وإما ان يقبل هذا التأريخ على ما فيـــه من الاضطراب والتفكك والاغلاط والعواطف ثم يقارن بينه وبين شعر الشاعر، فاذا وجد اختلافاً كبيراً بين ما يدرس من التأريخ وبين ما يدرس من الشعر – وسيجد هذا الاختلاف – كان عليه ان يختار احدى اثنتين: إما عقلية المؤرخ العاطفي او ذهنية الناقد النزيه، الناقد السياسي والناقد الادبي على السواء، ومن ثم يستطيع ان يبدي رأيه في شعر الرصافي وسيكون صواب الرأي او خطأه موقوفاً على تلك العقلية التي يتحدث بها والنظرة التي يوجهها ويحدد بهـا طريقة الدراسة. ولهذا أقول: ان دراسة الرصافي من الجانب السياسي يجب ان تعتمد في اكثر مواضيعها عـلى شعره وَفق مناهج البحث وألا يؤخذ من التأريخ إلا ما يوافقهـا ويوافق الحقائق الناصعة التي يقرها العقل. يقول بعض مؤرخي الرصافي إنه لم يكن سياسياً لانه لم يستقر على مبدأ واحد فما يكاد يتسم بميسم سياسي او يتصف بصفة سياسية حتى يتركها او يتنكر لها ليعتنق غيرها، وما يكاد يؤيد سياسياً من السياسيين حتى يثور عليه وينديد بسياسته وهذا هو شأن الشعراء العاطفيـــين. أما السياسة فانها مبدأ ثابت واسلوب واحد لا يحيد عنه صاحبـه، وعقيدة لا يتزحزح عنها معتقدها مهما تقلبت الظروف والاحوال حتى يبدو له خطأ تلك العقيدة، ولم يكن الرصافي من هـــذا النوع، فهو آذاً يتحدث عن السياسة إرضاء لعاطفتـــه وإشباعاً لهواه وقد يكون الشاعر مضطرباً في هواه وعاطفته!

هذا ما يراه بعض من تصدى لدراسة الرصافي وهو قول لا يجوز إلا اذا نظرنا إلى السياسة من حيث مدلولها ومفهومهـــا وكونها صفة تعتمد على اللف والمخاتلة ويتحكم فيها عقل المرء لا قلبه وعواطفه، والرصافي شاعر لا يتحدث الا عن قلبه وإحساسه ولا يعرف طريق اللف والمخاتلة.

اما اذا نظرنا إلى السياسة من زاوية الصراحة او انها الكسب مع الصراحة – كما يقولون – ومصدر خير ونصح لا مصدر شر

وخداع ورياء وان السياسي يجب ان يكون اميناً على مصلحة امته وبلاده، اذا نظرنا إلى ذلك كله استطعنا ان نحكم بان الرصافي كان سياسياً اصيلاً يمتاز بصدقه ومثاليته ولا يسلك سبيل المخاتلة والمواربة والدقل التي لا ترضي شاعراً مثله يجد في الصراحة خير ينبوع لشعره .

فهو إذاً بالقياس الى الوان الحكم التي عاصرها وبالقياس الى من رافقهم من السياسيين كان أصدق في التعبير عن نزعاته وافكاره ، ولم تكن نزعاته وافكاره سوى تلك التي سجلها في شعره وهي - في مجموعها - تمثل الى حد كبير اماني العرب ونزعاتهم آنذاك . ولم يختلف مع سياسي من السياسيين او مع فكرة يدين بها بعض الجماعات إلا لأنه يجد في جانبه حقاً او شبه حق ، وقد اوضحت مجاري الاحوال وتعاقب الاوضاع ان كثيراً من الافكار التي آمن بها الرصافي وعبر عنها بشعره كانت اقرب من غيرها الى اذهان العرب فيما بعد ، وان الرصافي لو اراد ان يكون سياسياً في مثل ما يتبادر الى الذهن من أساليب السياسة لكان مسلكه في الحياة غير ذلك المسلك الذي ادّى به الى حالات مؤلمة من العيش .

ولكنه يعتقد انه لو سلك هذه السبيل لمسخت شاعريته مسخاً من حيث الافكار والمواضيع وأدى به ذلك الى صراع عنيف بينه وبين نفسه وضميره ، ولكان يستحيل الى رجل من هؤلاء الذين يتحدث عنهم الناس بما لا يرضيهم، وهذا ما لايريده صاحب رسالة في الحياة قوامها الصدق ، وضمير انطوى على عقيدة وايمان راسخين . وإذا كانت هناك نقطة اختلاف اخرى بين سياسة الرصافي وسياسة السياسيين فهي ان الشاعر كان سياسياً في نظرياته وافكاره وتجاربه وشعره ولم يتح له ان يعمل في حقل السياسة مطبقاً كما اتيح لغيره ، وحل هذه المشكلة التي صادفها الرصافي لم يكن عسيراً على من له الملم بحوادث التاريخ المعاصر من جانب ، وثبات الرصافي من جانب آخر .

وعلى منهج الموازنات نذكر اننا قد شهدنا في عصر الرصافي كثيراً من الشعراء ولكن قلّ ان وجدنا شاعراً من هؤلاء استطاع ان يتميز بمبدأ واحد أو يحمل بين اضلاعه قلباً كبيراً قوياً كالرصافي . ان بعض هؤلاء الشعراء ممن صعدوا على اكتاف التأريخ وتسلقوا قممه بقوة الدفع كان في كل ادواره متقلباً متباينا في اساليب التقلب ، ذلك لان القلب المضطرب كان يدفعه الى هذا اللون من الحياة، اما الرصافي فلم يكن من هذا النوع وحسبنا دليلاً على قوة قلبه وتماسك اعصابه انه كان يوقع باسمه الصريح في عصر الاستبداد الحميدي حتى ان بعض الصحف العربية في امريكا آنذاك كان يشك في ان يكون في العراق شاعر اسمه « معروف الرصافي » وانما هو اسم مستعار يتخفى صاحبه وراءه ليعبر عن آرائه السياسية .

وهكذا كان الرصافي طوال حياته مفكراً فمعبراً ، وان الذي يدرس حياة الرصافي في اعماله وحياته في شعره يستطيع ان يربط بين الاثنتين ربطاً وثيقاً دون ان تصادفه مشاكل تدعو الى الشك والريب كما يقع له ذلك في دراسة كثير من الشعراء المعاصرين .

فالرصافي يوفق اشد التوفيق بين اعماله وبين قوله:

ولم استشر في الناس إلا تجاربي وهل يصدق الانسان إلا تجاربه

ويوفق اشد التوفيق بين اعماله في الحياة وبين قوله :

هل الكفر إلا ان ترى الحق واضحاً
فتضرب للانظار من دونه سترا ؟
وان تبصر الأشياء بيضاً نواصعاً
فتظهرها للناس قانية حمرا !
إذا كان في عري الجسوم قباحة
فأحسن شيء في الحقيقة ان تعرى
أحب الفتى ان يستقل بنفسه
فيصبح في افكاره مطلقاً حرا
وأكره منه ان يكون مقلدا
فيحشر في الدنيا اسيراً مع الاسرى

ان استقلال الرصافي بفكره وتجاربه واعماله ومجاهرته بالتعبير عما يتخيله أو يعتقده دون مخاتلة والتواء جعل منه شخصيتين مختلفتين في نظر الباحثين والمؤرخين تبعاً لميولهم وعواطفهم وسوف يكون مصير هاتين الشخصيتين الى شخصية واحدة عندما يصبح التأريخ حراً لايدون إلا الحقائق ولا يكتب غير الواقع الصحيح .

بغداد **ابراهيم الوائلي**